# طالبة: نحمد الله على اختراع بيل غيتس لميكروسوفت

في المغرب! لا في كندا، شاهدت امرأة ترضع طفلها من ثدييها، وتحمل كتابا،

تقرأ رواية فوق كرسي لحديقة عمومية، أدهشني هذا الأمر، بل فاجئني، ولأنه كذلك اتجهت نحو المرأة وتحدثت إليها، تقول مديرة المكتبة الجامعية محمد السقاط هناء الغول، فجاوبتني : يمكنني أن أقرأ بمنزلي أو في المكتبة أو في أي مكان آخر، لكنني أريد لطفلي أن يراني أحمل الكتاب بين يدي، حتى إذا رضع حليبي يرضع معه صورة أمه تحمل الكتاب وتقرأه، أريده أن ينمو وينمو معه حب القراءة، أريد أن أخزن في ذاكرته صورة الكتاب، وحب القراءة.

في المغرب وبالدار البيضاء تحديدا كبرى مدنه، نقف أمام المكتبة الجماعية مرس السلطان، الساعة تشير إلى الواحدة والنصف زوالا، والأبواب مغلقة، ولا من إشارة تشير إلى سبب الإغلاق هل هو موعد الإغلاق الإداري للمكتبة؟ أم أن هناك سبب آخر؟ الرابعة بعد الزوال، المكتبة الجماعية بمرس السلطان لاتزال أبوابها مغلقة، وليس هناك حركة للراجلين، بالرغم من تواجدها بمحاذاة لشارع رئيسي، حاولت أن أقرأ ماهو مكتوب على إحدى الورقات المعلقة على البوابة بالرغم من بعد المسافة، لكنها لا تشير لا من بعيد ولا من قريب لموضوع مواعيد فتح أبواب المكتبة، ولا إن كانت دواعي الإصلاح، تقتضي إغلاقها، إذن المكتبة مغلقة، وسر إغلاقها مجهول، ننتقل إلى المكتبة الأخرى التي توجد على مقربة من حديقة لارميطاج تشرف عليها وزارة الثقافة، بالحديقة إصلاحات لإعادة هيكلتها وتجديدها، سارية على قدم وساق، نلج البوابة الرئيسية، رجل يضع قبعة إفرنجية على رأسه، يخربش بقلم سود على الأوراق البيضاء الموضوعة أمامه فوق المكتب، ينظر في اتجاهنا، وما أن أطرح سؤال على أحد المسؤولين عن مكان المكتبة حتى يعود إلى أوراقه للخربشة عليها من جديد،

صاحب القبعة الإفرنجية فنان تشكيلي يعرض لوحاته ببهو المكتبة، وواضح أن المهتمين وزائري لوحاته الفنية، لم يأتوا بعد، لهذا فرح ما أن رأى تائه يبحث بعينيه عن مكان المكتبة، فاعتقد أن لوحاته هي المعنية بدهشة سؤال العيون، ودهشة اكتشاف المكان.

يقول الموظف، بأن المكتبة توجد في أسفل البناية، تحت مع نزول بعض الأدراج نعثر على المكتبة، بنايتها متآكلة ولم تلمس جدرانها فرشاة الصباغة منذ سنوات، على مدخلها سبورة حائطية تخبر الزائرين عن وثائق التسجيل بها، شهادة السكنى، شهادة مدرسية لمن يتابع دراسته، وشهادة العمل لمن يعمل، زيادة على عقد الإزدياد، تتوزع غرف المكتبة على قاعة خاصة بالأطفال لاتعتني بخصوصيتهم بحيث تؤثثها مساحة ضيقة، بألوان باهتة وكتب وضعت بشكل اعتباطي، ينقصها كل ما يمت للطفولة بالصلة، غرفة أخرى حملت عنوان المطالعة (أ) به كذلك كتب موضوعة على الأدراج وطاولتين للمطالعة، فضاء ثاني حمل اسم قاعة المطالعة (ب) بها شاب واحد فقط يراجع دروسه المدرسية، ولم تمتد يديه للكتب الموضوعة على الرفوف، وهي كتب جميعها عن دين الإسلام، من شريعة وفقه وتاريخ الصحابة والأنبياء، أخذ الشاب قلمه، وانهمك في حل المسائل الرياضية المعقدة، يضع فوق الطاولة، ثلاثة أوراق بترت من دفتره الدراسي، لقواعد رياضية، المقيم على المكتبة أجاب ردا عن سؤال حول غياب الطلبة والتلاميذ، بالتلويح بيده صوب جهاز الحاسوب، قائلا هذا هو الذي قام بإفراغ المكتبة من روادها، لم يعد الطالب يجد في المكتبة ما يريده، الأنترنيت، منحه كل شيء، يكفي أن يلج إلى عالم البحث غوغل، ليعثر على كل ما يريد، الأنترنيت أفرغ المكتبات من روادها.

من مكتبة لارميطاج، إلى مكتبة الجماعية المعاريف بشارع موديبوكيتا، القيم على مكتبة يجلس فوق كرسي بالقرب من الباب، طلبت منه القيام بزيارة لها، كوني أبحث عن مراجع خاصة، أحتاج إليها في بحث أنجزه، صعدنا إلى الطابق الثاني، أدراج المكتبة فارغة تقريبا، ومراجعها وكتبها قديمة، وقال موضحا إننا لم نعد نطلب كتبا جديدة، لأن الطلاب والتلاميذ لا يطلبونها، لاحظ أنه هناك تلميذ واحد من يوجد بها، إنها فارغة، يأتي في بعض الأحيان مجموعة من التلاميذ لمراجعة دروسهم، لأن المكتبة توفر لهم الجو الهادئ والأطمئنان، لكنهم لا يقتربون من كتب المكتبة على الإطلاق، إن تلامذتنا لا يقرأون، فقط يكتفون بمراجعة دروسهم وإنجاز تمارينهم الدراسية ، وإني بث أخشى على المكتبة من الإغلاق، المكتبات الجماعية، قد تغلق أبوابها، مثلما أغلقت أبواب مكتبة مرس السلطان، لتلتحق المكتبات بنزيف إغلاق قاعات السينما وتخيلوا مصير هذا الجيل، جيل تغلق أمامه المكتبات وقاعات السينما، في زمن طغت عليه أدوات التكنولوجيا الحديثة، وقيل ذات زمن الكتاب خير جليس، واليوم أصبح الإنترنيت خير جليس.

يقول يوسف مرابط طالب بكلية العلوم عين الشق بأنه يأتي المكتبة الجامعية محمد السقاط، لدراسة المواد الدراسية، إنه يكتفي فقط بالإستعانة بالمراجع ذات الصلة بالمواد التعليمية، نظرا لكثافة المواد ، ويضيف إنني أشكر الشخص الذي أنشأ المكتبة، فهي فضاء مجهز بكل الوسائل، وتتوفر على قاعات متعددة، بالإضافة إلى النظام والنظافة والمراحيض، بخلاف المكتبة الجامعية بكلية العلوم القبيحة على حد تعبيره، فيها لا يستطيع الحصول على الكتب والمراجع العلمية بالإضافة إلى غياب الطاولات والكراسي.

اسنينة أميمة زميلة يوسف بنفس الكلية تؤكد أنها تستطيع أن تقرأ المؤلفات الأدبية في أوقات الفراغ، خاصة بعد الإنتهاء من الإمتحانات الجامعية، وتقول أنها بعد الإنتهاء من الإمتحان ستأتي إلى المكتبة للقراءة، قراءة الروايات البوليسية باللغة الإنجليزية، وتؤكد أنها في عطلة الصيف، تقرأ المجلات والجرائد، لكنها تصر على قول الخلاصة الآتية، المكتبات هزمتها الإنترنيت، فكل شيء موجود به والحمد لله على بيل غيتس مخترع مايكروسوفت، كما أنها تضيف نفس ملاحظة زميلها بأن المكتبة الجامعية محمد السقاط، فضاء جيد، وبه العديد من الكتب والمراجع، وبأنه خلق لهم فضاء للشعور بأنهم طلبة فعلا.

محمد الجغلالي باحث في العلوم الإجتماعية وعضو جمعية الباحثين الشباب في العلوم الإجتماعية، اعتبر أن الذهاب إلى المكتبة بأنه حاجة نفسية، لأنه لا يمكن للمشتغل في البحث العلمي أن يعيش في إنعزالية، فهي توفر لك الإحساس بالإنتماء لمجموعة اجتماعية لها رؤية وبأنك لست وحيدا في هذا العالم، ويضيف بأن هذا دور من أدوار المكتبة، فليس لها دور إعطاء المعرفة فقط، بل هي فضاء إجتماعي يعثر فيه الباحث، عن أقرانه، يتواصل معهم بنفس اللغة، لغة مشتركة والتي افتقدها في الحي والدرب والبيت.

والمغرب برأيه يعيش أزمة كتاب وقراءة، بسبب أن المعرفة لم تعد قيمة إجتماعية، وسلم القيم الإجتماعية فيه هو ما تملكه وكم لك من نفوذ. والقراءة الآن، عند الطلبة الجامعيين لا تعزز ثقافتهم العلمية والعامة أكثر مما أنهم يستعينون بالمراجع تساعدهم فقط على إعادة إنتاج نفس المهارات التي يتقلونها، وكيفية إنجاز الإمتحانات بنجاح، في حين لا يعرف فلسفة التنظيم، وفلسفة المعرفة وغيرها من الحقول المعرفية.المكتبة الجامعية محمد السقاط استطاعت أن تستقطب 10.000 طالب جامعي إلى صفوفها، لكن السؤال العريض هل ستربح رهان تحبيب القراءة إلى الطالب؟ بما تتوفر عليه من إمكانيات لوجيستيكية هامة، ومراجع وكتب وفضاءات، بل أنها استطاعت أن تتوفر على مخطوطات نادرة بمجموع 800 مخطوط، كما أن عملية التبرع بالكتب والمخطوطات لا تزال مستمرة، إذ ونحن نزور أروقة المكتبة عاينا حصول المكتبة على أربع كرطونات من المخطوطات وتسعة من الكتب، أرسلتها إحدى العائلات المشهورة، توفي صاحب مكتبتها، وأهدتها للطلبة الجامعيين، حتى يتمكنوا من حمل الكتاب وأخذه بالقوة، فهل سيقرؤون؟ يحدث هذا في المغرب وليس في كندا.

عبد الواحد رفيع